



فضيلة بصييل

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م

ردمك (ISBN) : 978-9947-79-397-8

التوزيع الدولي: مصر، لبنان، الأردن، العراق، السودان

اسم العمل: وعادتْ بِحُفِّي حَنِينِ

اسم المؤلف: فضيلة بهليل

تصميم الغلاف: سيف الدين لغويل

المدير العام / سميرة منصورى

اخراج: أحمد منصورى

الناشر / دار المثقف للنشر الجزائر

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

[/https://www.facebook.com/elmothakaf](https://www.facebook.com/elmothakaf)

الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com

هاتف / فاكس 033 85 65 75 / 0666 76 28 50

المثقف للنشر والتوزيع



ببلومانيا للنشر والتوزيع



جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

فضيلة بهليل

المثقف

للنشر والتوزيع



وعادت بخفي حنينه

موجة قصصيه

عُمرُكَ عود ثِقَاب



وعمرِي ورق



كَلَانَا خُلِقْنَا لِنُتْرَقَ"



إهداء

إلى شخص لم أعرفه بعد...
شخص سيأتي ذات يوم ليحلّق بحرفي وحلمي معا...
بعيدا عن النسخ المشوّهة لما يدعى بـ "إنسان"...



" مُسافرة "

مسافرة، لا إلى مكان معلوم، ولا أحد على الصّفة الأخرى بالأحضان
سيستقبل شبحي، طويل هذا الطريق الذي يرفس وجعي، ويعجن من
صبري فطائر ذكريات، قلتَ في بوحِ خالطه ندم: "أحببتُ...". وبتردد
أضفت: "ها"، فأدركتُ أن ما قيل كان صحيحاً، وأنّ تلك التي كانت
ترتّد على مكتبك كل مرّة لسبب أو لآخر، كانت تريدك أنت لا شروحاتك.
قلتُ بعد يأتي من اجتماعنا: "مبروك"، وهممتُ بالرحيل فلم تقل شيئاً.

بدا شبح الذكريات ممزّقاً، تعلوه ابتسامة ألمٍ تدلّت على أحد نهايات
هدبه فلم يلتقطها، تركها هي الأخرى تغادر حيث تريد، لا فائدة من
استبقائك بعد الآن، لا أنت، ولا شيء منك...مكنسةً واحدة أحتاجها الآن،
هي تلك التي تشطف بالماء أرضية عمري من بقايا زجاجك، فلا تعتقد
أن برحيلك سينتهي عالمي، وبأني سأظلّ مكسورة مقهورة أستحضرك في كل
مناسبة، وكثيراً بلا مناسبة أيضاً.

مررتُ بمنأى عن كل طريقٍ قد يؤدي إليك، أغلقتُ كلّ الممرّات لأني
كذلك فعلتُ داخل دهاليز روعي، المنفذ الحقيقي هو الداخل، عداه...
كل الطُّرق أشباه.

طرقٌ خفيف يمزّق سكون عمري اللحظة. أفتح؟ أنظرُ من الزائر؟ أم أدعه
لطرّقه وفضوله خلف بابي؟... فليطرق ما شاء له. قلبي لا يحتاج سُكّاناً
من هذا العالم. سيكتفي فقط بذلك اللأمريّ. هو أوفى منك. لا يحتاج
طرقاً، يكفيهِ اختراق الجدار والأبواب والنوافذ متى شاء. لن يزعجني كل

مرة بفتح النافذة ليلاً للتهوية مُدْعِياً رائحة شئْ خانقة. ولا يبعثر ملابسي على أرضية الغرفة بعد أن يُخرجها بجنون من خزانها بدعوى الغيرة. ولا ينتقدُ كل ما أقضي وقتي بطهيه من أجل إرضاء معدة شهواته. إنَّه لا يُشبهك، لا يفعل كل ذلك يكفيه أن يجلس مقابلاً لحزني، ينظر شوقي، وبحُبِّ يُمَشِّطُ أُمِّي المنسدل بحيائي.

لا أذكر أنَّه غضب يوماً مني فحمل فراشه لغرفة الصُّيوف تاركاً خوفاً وجوعياً لذئاب اللَّيل. الآن أدرك كم هو أروع منك، كم هو أهدأ منك، وكم هو أحرص عليّ مني ومنك.

انبلج الصبح، ونسيْتُ حتى أن أسأل عنه، عن اسمه، عن مقامه، عن عالمه. سيطول الوقت بانتظار أن أعرف، ها هو هاجس حب آخر غير حبِّك، يحتلُّ هاجس لقاءك، وهي ذي طاقة جديدة أرديها فلا أراك. جلسْتُ بجواره، كان الوقت مقاربا لغروب شمس الندم، لم أفكّر كثيراً فيما قاله لي:

"منذ زمن أبحثُ عنك بلقيس".

جلسنا على ربوة نتأمّل، أنا...وهو... ذلك الذي ما كان لغيري أن يبصره، بدا أكثر انشراحاً من الأمس، كأنها اطمأن لوجودي بقربه. ونحن كذلك حتى رأينا جمعا من الناس قرب إحدى المنازل، وأصوات بكاء ترتفع كلما حاولتُ الاقتراب من تلك المرأة التي كانت ترقد على نعش يحمله رجلان لم يكونا أقلَّ حزنا من البقية. خلفها أهلها يبكون بحرقة ويندبون. كانت تغادرهم للأبد.

اقتربتُ أكثر، وتبعني هو، ذلك الطّيف الغريب. وجوههم ليست غريبة عني أبداً... شهقة واحدة طلعتُ من صدري وأنا أرى تلك الجثة الهامدة... صُعقت... إنها أنا... أنا... أو بالأحرى جثتي... نظرتُ للطّيف الذي كان يقف خلفي أوماً برأسه إيجاباً، وبقيةً أنا أنظرُني وأحبّتي خلفي ينوحون. مرّقتني بكاؤهم وتفجّعهم، كنتُ أصرخ قائلة لهم: "أنا هنا... أمامكم" لكن لا أحد كان يستطيع سماعي. جلستُ بعد يأس على تلك الرّبوة دون أن أجد لي صوتاً أبكيه... وحده ذلك الطّيف جلس قربي مرتباً على كتفي وهو يقول " لا تخافي... أنا هنا معك... ولن أفارقك".

"هَوِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ"

جلستُ بمحاذاته، تراه لكن لا تستطيع أن تقول شيئاً. وحدها نظراتها فعلتُ. قطارُ العمر يمضي، وهما لا زالا يتسليان بجمعِ حقيبة السفر، لم يكن سفرًا، كان رحيلًا، وداعًا. ولم تأسف على تأخير رحيلها إلا بعد قوله لها على مرأى ذكرياتهما:

- "أنت طالق".

ثقيلةٌ جداً لو يدري. كانت ترى أنها تلبسها أني ذهبتُ كأنها بطاقة تعريف لهويَّة جديدة أكسبها لها. تضع رداءً يقيها رمي نبال الأصابع. وتمشي كأنها تدوس على هويَّتها الحقيقية، هويَّتها التي أضاعتها بزواجها منه. تاركةً بساطة لباسها وراحة فراشها لتلبس على ذوقه ومقاسه أفكاراً وهويَّةً لا تشبهها، لتنام على فراشٍ حريري لكن مطرّز بشوكِ الأمر والنهي عن توسد ذراعها بغيبابه وبكائها على وسادتها بحضرتة، بل لعلها فقدتُ أعزَّ من ذلك كلِّه، قلبها، قلبها الذي ساير فصوله فمشى حافياً بأحلامٍ غسلها البرد وبذاكرة تُشحنُ بطَّاريتها مرَّة كل فصل لتعاني بين كل فصل وآخر سكرة النسيان، نسيان أن لها قلب، لها كيان، لها كبرياء. و لها أنوثة مغرية لعشرات الرجال. خرجتُ من داره خرقة قديمة بُليت في أقلَّ من سنة وما كلَّف نفسه عناء الاعتناء بها.

خرجتُ بعدما مسحتُ بطيب نواياها جدران منزله وأرضيته، ولم تعلم أنها كانتُ تمسحها بكرامتها ليدوسها هو بكلمة فتُختم تلك الكلمة على كل أوراقها، بدءاً من شهادة ميلادها التي لم تكن تعني أكثر من

وفاة شخصيتها القديمة، إلى شهادة الطلاق التي صارت تقف أمام شبّك استخراجها تستعجل الحصول عليها هرباً من تلك النظرات التي ترمقها بإشفاقٍ وأخرى باشتهاء.

مُطلّقة، كلمة واحدة تختزل كل أسلحة الكون، كفيلة بدفن امرأة حيّة، وميلاد أخرى لا تشبهها، امرأة أكثر قسوة، أكثر حزناً، وأقل حباً للرجل. ها هي بعد يأس، تصفّق له شجاعة الحسم في أمرهما قائلة:

- "لظالما كنتَ جباناً في القرارات التي استدعت شجاعتك، إلا في هذه، من أين لك بتلك القوة والقسوة كي تُكسّرني وتُكسّرني؟ فأظلل أجمّعني وحدي، أخبئ لابني ما تبقى من رماد الذكريات".

خرجت مسرعة للشارع بعدما دفعته كل تلك الأفكار للجنون، ففي النهاية هي تعرف أنها صارت مجنونة، تناست الأمر، وراحت تحمل حقيبتها باتجاه الحمام، علّها تغسل ذاكرتها من بقايا عطره الذي لم يعد كذلك، وتخلع عنها حزنها وتعبها وثقلها. دخلت الحمام فاستقبلتها رائحة جنّاء وعطور نسائية وبخور وغاسول من الطين، كلّها امتزجت لتشكّل في الأخير عطراً لن تجده إلا بالحمامات.

سَلِّمَت على صاحبة الحَمَّام أو جارتها، بعدما رمت بحقيبتها كأنها هي الأخرى تعبتُ منها ومن جَمَلها، فراحتُ تعرِّفها على عَمَّتِها التي انشغلت بارتداء لباسها، تفوح منه رائحة بخور ذكَّرها بأيامها الخوالي حين كانت تعطَّر عباءته صباح العيد، أو زوال كل جمعة. للعبور ذكريات قاتلة، يصعب علينا نسيانها. قالت زهرة صاحبة الحَمَّام لعمَّتِها، مُشيرة إلى
فايزة:

"- فايزة، ابنة عمِّي محمد التَّجار"، فمدَّت خدَّها دون أن تكلف نفسها عناء الوقوف، ففي النهاية كانت فايزة مجرد امرأة مُثقلة بهمومها، ولا ضير في أن تنحني قليلاً علَّها تنفض بعضاً من ذلك الحزن على الأرض، فلتفعل الجاذبية ما أرادت بها، سلِّمْتُ عليها، وما شعرتُ إلا بثقل ينبض أعلى جبهتها، كأنها انحنى لتجمع ما كان متبقياً من حزنٍ على جبهتها التي صارت تقوم بوظيفة الجاذبية نيابة عن الأرض.

جلستُ فايزة بجوارها تنزع خمارها وتخرج من حقيبتها ما تبقى من مخلفات أغراض العروس التي كانت ترفض أن تُبلى كما بُليت، كان الطست الفضي والمشط المذهب والحقيبة الداخلية أدوات تنبئ بدخول عروس للحَمَّام، كل شيء من أسيائها ما كان ليكون إلا لعروس في بداية ألقها واعتزازها بحياتها الجديدة، إلا وجهها، لم يكن كذلك، كان موشوماً برماد من بقايا نار تلك الكلمة، حتى خالَتْها تلتصق بوجهها التصاقاً كعلامة تجارية يراها كل من تمرَّ بمحاذاته، حتى وإن كان أمياً لا يجيد القراءة.

ثم أضافت صاحبة الحمّام قائلة لعمّتها، وعلى مسمعٍ من فايّزة:
- "مُطلّقة...مسكينة".

كانت تلك هويّتها الجديدة والتي لا معنىٍ للتعريف عنها بدونها. ولم تجد بُدّاً من رسم ابتسامَةٍ بؤسٍ تبلع بها غصّتها التي نخرت حنجرتها حتى باتت لا تقوى على محاورة الناس. ملّمت بسرعة أغراضها التي تدخل معها لفوهة الحمّام وعلّقت بقيّة ملابسها بعد أن جمعتها بفوضى داخل حقيبتها على مشجب حديدي، وراحت تجرّ قدميها وبحقيبتها تصرخ الأدوات وتحتفل، كأنها كانت تسترجع أول تذكّار ليوم استعمالها، حين دخلت فايّزة محفوفة بكوكبة من أخواتها و خالاتها وبناتهن، وعماتها و صديقاتها، وهنّ يزغردن ويصلين على النّبي، تتقدّمهن أختها وهي خلفها على خطى مَحَبَّةٍ تسير، كتلك التي خطت بها أول مرة لمنزله. كانت أغراضها تتطلّع للزغاريد اليوم أيضاً ولم تكن تدري أنها زغاريد لحزنها، ولأفول الألوان الرّاهية التي تزيّن حقيبتها الصغيرة.

خرجت وما تدري أكانت تغسل جسدها ورأسها كما كُنّ يفعلن أم أنها كانت تغسل ذاكرتها فقط من كلّ ما ربطها به وبكل ما صار بغيابه وفيّاً له، يذكّرها به. عادت للمنزل أقلّ ذاكرة، محمّلة بالنسيان الذي حشّته عمداً بحقيبتها وبقلبها وبذاكرتها، كان منزلها يستقبل خالاتها وجدّتها كما جرت العادة كل جمعة، تمددت قرب جدّتها، تستنشق عطرها الذي يبعث في نفسها الطمأنينة ويبحر بها لعواملها، وحدها من كانت تقف معها دون أن تبحث عن الأسباب أو تستمع لشروحات أحد فهي تعرفها، لطالما قالت لهم بغيابها:

- " لا أخاف على أحدٍ منكم كخوفي على فائزة، لأنها لا تردُّ عن نفسها مظلمة".

اليوم صارت تقول:

- " فائزة لا يشبه اسمها حقيقتها...مسكينة ابنتي..."، ثم تبكيها في صمت بكاءها على ميت فارق الحياة منذ زمن وصار أهله يبكون كلما ذكّرتهم المواقف به.

كانت تستمع لحديثهن دون شهية، تتظاهر بالنوم كلما مرّ طيف عروسٍ في كلامهن، وتتدبّر بحزنها وهنّ يذكرن ما عانت في حياتها الزوجية في مقارنة بينها وبين حياة عرائس تزوجن في نفس السنة التي تزوجت فيها وحبلن، تلبس قناع النوم، وإلى سمعها تنهال كلمات الشفقة واللوم. مرّت سنة كاملة على طلاقها، حاولت خلالها ترميم ذاتها وذاكرتها، وكانت عودتها للعمل مجدداً بمثابة خطوة أثبت بها وجودها، عاد لها نفس ورغبة في الحياة، خصوصا بعدما تعرّفت على عُمر، فكانت ترى فيه ما لم تره في طليقها، كان نقيضه في كل شيء، ولعلّها لهذا السبب أعجبت به. ويأحدي الجلسات التي كانا يناقشان فيها قضايا العمل، بادرها بقوله:

- " فائزة، سمعتُ عنك خبراً، لكنّي لم أصدّقه".

ففهمتُ، ولتُجنّبهُ حرج السؤال، قالت:

- " نعم، صحيح...".

ونَهضتُ تحملُ أوراق العمل بعدما أكملتُ باقي الجملة، وهي تتمتم كأنها خشيئاً أن يسمعها أحد:

- " ...أنا مطلّقة".

" مرآة جدتي "

تأقت نفسي لروح جدتي، تذكّرت حين كنّا نجلس معاً تحت جذع النخلة، أرقبها منهمكة في صنّع أطباق من السّعف، وهي تحدّثني. ها أنا أعود بعد سنوات، أشرّع نافذة الذكريات، أستنشق عبّق بخور الطيبة يعطر خزانها، لمحتُ المرأة المثبتة على الحائط، كثيراً ما كنتُ أستغرب من جدّي الذي ابتكر فكرة تثبيتها بالإسمنت على الحائط كأنه شيء مقدّس، كانت المرأة لا تزال صافيةً كما تركتها جدّي، لم تكن تجد لها وقتاً إلا بساعات الليل حين تنفض عن جسدها كلّ تعب.

أوووه، منذ مدة لم أعد أزور غرفة جدّي وأتطّلع على طموحي وأحلامي من خلال هذه المرأة، كانت كلّما أبصرتني أحدث نفسي كأني أمثّل في دور السينما ابتسمت، وأذكرُ حينها قالتُ:

- "ستين نفسك بكلّ ألقٍ كلّما نظرتِ إليها بحبّ، وبصدق أيضاً".

ها أنا أقفُ مجدداً أمامها بعد أن عدتُ من سفرتي الطويلة، نزعْتُ خماري الأسود عني وأسدلتُ شعري مُرتلة ما حفظتُ من شعري الذي صارت أبياته تصدح في كل مناسبة، عقدتُ الدهشة لساني، تراجعْتُ قليلاً، فركتُ عينيّ ثم عاودتُ النّظر بالمرآة ، فلم أَرني، مسحْتُ الزّجاج بخماري الذي كان مرمياً على الأرض، مرةً وأخرى، لكن دون فائدة، ورحتُ بقلبي أشير بأصابعي كمن أصابه مسّ، أدنو وأبتعد عن المرأة دون أن أرى انعكاسَ ظليّ عليها. لا شيء غير الضّباب ظل يتراقص بمساحتها الخاوية. أخيراً حاولتُ بعد أن نال مني الإحباط والخوف، مسحْتُ وجهي وكتفي

وذراعي، وكل ما كان مكشوفاً من جسدي، بمنديل جدّي، ودنوت أُخفي
بكلتا يديّ وجهَ طفولتي، وما إن أزحْتُ إحداهما في ارتباك حتى رأيتني...
نعم رأيتني مجدداً كما كنتُ قبل أن أغادر غرفة جدّي التي عاشتُ
كل أحلام طفولتي ومراهقتي، ورحتُ كأني أراني لأول مرة أمشط شعري،
وأبتسم في وجهي، الذي قبل دقائق فقط لم يكن وجهي.

"وعادتُ بِخُفْيِ كِنِينِ"

لازلتُ هنا وحدي، أروّض هذا الحزن الذي جاء هارباً منك إليّ. لازلْتُ
أنا الأنثى العابثة بأشْيائك، أرّدي فرحة طفل لاستقباله، أحضنه بكلّ
الحبِّ في قلبي. وبكلّ المواجه رُفقة حزنك حروفك تأتي، حاملَةً عَبَقِ
بخورٍ لمزارٍ وليّ، وعطراً مُندساً بأنفاسك، فأرّدي في حضرتها كلَّ الوَرَعِ.
تصطفّ على وسادة أفكاري، تُغازلني فأضحك مُنتشية:
"-لم يسبق أن كتبكِ هو بهذه الطريقة، وعلى هذا القَدْر الباذخ من
البوح".

فتلتفُّ حول نفسها كأنّها بكلّ حركاتِ الإعراب استنجدت فقط لتُغيّرَ
هياتها الأولى. هالة من صمتٍ لُقت تلك الحروف، حروفك التي بعد
أزقٍ طويلٍ. قرّرتُ أن تبوح لي بعيداً عن رقابتك، بعشقي، وعلى مرأى كلِّ
حروفي، بأنك لي، أشعارك لي، كلماتك لي، حتى صمتك هو لي، لكن... تُكابر.
لم أشأ أن أسألها فقد تعبتُ هي الأخرى من تَسْتُرِكِ بها، وهي لا تقوى
في حضرتك. إلا على طاعتك، كيف نسيت أن تتفقدها الليلة وأنت الذي
حين تحضر البيت يصبح أصغر طفل سيّد الجميع وينصرف المهتمون به
بدءاً من أمه، لأن شخصاً لا يَغْفَل لحظةً في حضورِ طفلٍ صغيرٍ... جاء...
فكيف إذا تعلّق الأمر بحروفه؟ كيف أتت مُزهرة بكفّي على غفلة منك،
عانقتُ طويلاً حروف اسمك فانتشت بقية الحروف راقصة على سريري
الذي. بحضورك. ما عاد يشبه أبداً شبح سريري.

ها هو الليل نفسه الذي دثر أحلامنا ذات ربيع، والنجوم هي هي وإن
غيّرت منازلها ومقامها تبقى وفية للسماء، وذلك البدر عاود هلالاً مرات
ومرات. إلا أنت... فكيف يمكن لليالي بدونك أن يتنفس حباً ما لم يكن
شوقاً حارقاً؟ ومتى يحين أوان انجلائه ما لم تكن أنت جالي ظلامه؟
بعيدا تهربُ مُلتقاً بغطاء حروفك، مراوغا تدخل تُغري بغضبك عليّ
حروفي، هي تدري، منذ أفصحتَ بقليلٍ من بيانِ رُوحك قائلاً: "أنا لا
أغضب إلا ممن هو جدير بغضبي، أقسو من منطلق الحب، إنها قسوة
الغيرة، غيرة محرقة وإخلاص جارح".

من هنا استمدتُ حروفي احتفاءها بغضبك لأنها صارت تُدرك أنك تحبُّ
بقسوة، بل في قسوتك عليها كل الحبّ. تُقبّل حربي وحرفتي وعلى عجل
تُبْعثر حروفا هاربة منك إليّ ثم تنسحب لتبدأ ليلتي معها، نتصالح،
نشاجر ويضرب بعضنا بعضا، وفي الأخير أتوسّد حزنك معانقة حروفك،
ضاغطة بحنوٍ على حروف اسمك في ترتيب بهيج تماما كما هو الحاء
والباء.

وحدي وقلبي نحملنا معا جنبا إلى جنب بجوار سدرة المشتى تلك،
قد نصل وقد لا نصل أبدا، لكن يكفيننا شرف المحاولة وساماً للوفاء.
على استحياء جاءك حافيا يمشي حربي، خائفا أن يُنهر عند أول سؤال،
ضائعاً بين مرايا تشظّت عند عتبة بابك، ذلك الباب الذي فشلتُ مراراً
في فتحه، بل كان يُعيقني حتى المفتاح الذي أغلق عني تلك الفوهة
وقد كانت- في ليالي الصّرد- المدفأة التي بنورها كنتُ أردُّ بردَ استعاراتي
وكنياتي.

الليلة -وبتحالف مع حروفك- عقدتُ العزم أن تحيا أنوثتي فقط على عرشك، أن تتدثر فقط بزهوك، أن تكون في النهاية قطرة من جدولك، أو... أبداً لا تكون. كنتُ كبائعة الكبريت أشعل رؤوس الحروف بكل الحركات في كل الحالات الممكنة، أغويها بالرقص، فترقص وترقص، وهو يعانق في حلمي كما حقيقتي بؤس الكلمات. أدور، أرفع فستان القوافي كي لا تكون الحروف أقرب أكثر مني فتشبح بوجهها عني، ذلك الفستان الذي اخترته لسهرتنا الليلة "لام" متسرِّباً بالسَّواد، ثم أسفله حواشي منمنمة شكَّلتُ جميعها حرف "هاء" ¹ في إيقاع أطرب جميع البحور فرقست هي الأخرى حباً وغيرة، وبكل المباني والسياقات تتشكل الأوزان، ويخفت نور عود ثقاب الكلمات إلى أن يحرق بانطفائه يدي الممدودة إليك.

عقارب ساعة زمني تراقص نبض قلبي، تتمنى أن تتوقف لبرهة، تطيل وقت الرقص... لكن... عبثاً تحاول، فسندريلا الحروف تدرك أن منتصف الليل وشيك، وحروفك الوديعه المطيعة صارت تناظر بعضها، صارت تعاتب بوحها، حاولتُ أن أشغل حيرتها بأكواب من دمعٍ اعتصرته بليالي بُعدك -وما أكثره وأكثرها- كنتُ أحتفظ به في قارورات عطري كشاهد لمحاكمة حبك، أرشُ به فراش لغتي كلما انتصف الجنون، وغاب طيفك في طلاسك التي كنتَ بين الحين والحين ترسلها كقدر إليّ.

قلتُ بعد أن شغلتنني حيرة تلك الحروف وهي تتهامس خائفة عقابك:
- "ليس لهذا الحد! فشاعري أحنُّ عليكم منكم على أنفسكم، إما غضبه حب، وقسوته كذلك". وفي قلبي بهمس:

1 لام و هاء: ليلة هادئة

- "كما يفعل دائماً معي".

ثم واصلتُ كأنما لأثبت لهم صحة ما أقول:

- "هل بات حرف منكم ذات يوم من المعاني عارياً؟".

نظرت الحروف لبعضها تهز رؤوسها نفيًا ثم قالت:

- "لا... أبداً".

ثم أردفتُ:

- "وهل ضاع معنى أحدكم لسهوَ حركةٍ أو لنقصِ شِدَّةٍ أو أصبحت

بالغلط لأمه مَدّه؟".

فنطقتُ بالنفي:

- "لا... والله لم يحدث".

حينئذ جثوتُ على ركبتيّ ملاطفةً خدودهم المحمّرة خوفاً وخجلاً،

ممسّدة على رؤوسهم، فسقطت في غفلة ضمّة كانت قد التصقت عمداً

بحياءٍ هي الأخرى لازمتُ بآءٍ في حياءٍ شديدٍ حتى كادت كل واحدة منهما

أن تبدو منفصلة، خجلتُ الضمّة من هذا الموقف المحرج وتكومت على

نفسها بعد أن تزلقت وانزاحت من مكانها مُستميّةً البقاء بهذا الحرف

لتستقرّ أسفله، وخجلتُ أنا لأني كنت سبب إعاقتها تلك.

ما أعجب صبر الحركات ونضالها، أدركتُ حبّها الشديد لهذا الحرف،

فخجلتُ محاولة تجاهل الموقف غير أني فطنت لقطعي المحاورة مع

حروفك فأضفتُ كأنما تثميناً لكلامي قبل قليل:

- "صاحبكم صدقاً يجبكم، وما قسوته عليكم إلا لهذا السبب فلا تلموه،

وسرّه إياكم أن تفضحوه".

نطق حرف كان بأخر الترتيب الأبجدي قائلاً في تذمر:

"لكنه يؤثر الكتمان وقد أرهقنا وآلمنا أن نرى حروفك مستنجدةً باكيةً كل ليلة على طاولة حلم".

"ويلي...حتى الحروف صارتْ تدري..."، أسررتها في نفسي، وجاء مكابراً مدارياً لحزني حربي، ناطقاً في حضرتي عني، مناقضاً قولي، فقال، وحرّفك مثلك في عنادٍ قال...وعلت الأصوات...

جلستُ غير بعيدة عنك...عفوا عنها...عن حروفك التي فجأة صارت تشبهك، وقد كانت قبل قليل تشكي جبروت صمتك...عجيب!...حتى في بعدها عنك...حتى في خلافها معك...تذوذ عنك، عكس حروفي رأيتها تنكسر، تنهزم، لا زرقاء علامةٍ صارت تُبصر الغازك فقد فقأت عين سكونها وأهملتُ نقطة قافها، ولا خُفا حُنينٍ عدتُ بهما من عالمك بعدما راودتني نفسي لفتح حائها، سرابٌ في سرابٍ جمَعته جعبتي، أرويه لكل من خذلهم الحرف وأسقطهم في هاوية غوايته.

كنت قد حضرت مسرعاً باحثاً عن حروفك، مخطوف الملامح، كأنها خشيت بوحها. نهضتُ من مكاني بسعادة بائسة، حَيْثُك وأنا أشير لك بالجلوس على مائدة منتصف الليل التي أعدتها خصيصاً لحروفك، بل حروقك، قلت مستعجلاً دون أن تكلف نفسك عناء الالتفات إليّ:

" في وقت آخر...".

ورحتُ تجمع حروفك داخل قلبك وحروفي لفراقها تنتفض دفعةً واحدةً وتسقط مصروعة فلا ألمها، ولا يهزني اضطرابها، فكثيراً ما خدعتني تلك الحروف التي كنت أحسبها قبل اليوم حروفي. كانت فقط نُسخاً من

حروفك، هي الأخرى بإشارة منك صارت تلتئم وتتشظى.
حرفان ظلاً مكانهما دون حراك، قطبتَ حاجيك تجاههما ورحت تقرأ
بتعلمك كأنهما قد خرجا عن نظام قبيلة أبجديتك فصارا صلوكين، أجل
إنهما: "الحاء والباء" ترتعد فرائسهما خوفاً، وما كان يديران أنهما ما عادا
بذلك المعنى الأول فقد قَلَبْتُ تلك الضمة الحمقاء -حين انزلتُ من
ظهر الحاء لتستقر أسفله- كلَّ المعنى الذي أردتُ أنا والذي خِفْتَ أنتَ
أن يكوناه بعد أن صارت حاوِّها جيما...أجل...جُب...جُب...هو حبك.
عاد لوجهك نوره بعد أن اختلَّ المعنى وتاه السياق، وتفككت المباني،
فلا النصُّ صار نصّاً، ولا أنت كنتَ مؤلِّفه، وحدي...أنا القارئة المُفترضة
التي -في غفلة من القراءات المتعددة- رُحْتُ بنويةً المنطق، تفكيكية
الاستراتيجية، أعيد قراءة حروفك بمنأى عنك، على طريقي، فتموّه نصُّك
وضاع بسبب أهوائي وإسقاطي الخاصة جلَّ المعنى الذي أردته أنت.
وعادتُ مرة أخرى تلك الكلمات إلى صاحبها بعودة عوامله.
فعدرا أيها الشاعر إن سحبتُ في غفلة منك بطاقة هويتك ورحتُ أعرض
على الملأ أشعارك بهويّة مزيفة ومناهج مختلفة، هوية لا تشبهها في شيء،
هويّة هاوية قراءة ليس إلا.

كنتَ ترقب ما خططتُ على تلك الورقة بشهادة الدَّمع، وقد ظننتُك
على عجل رحلت بعد أن لممتَ حروفك داخلك. أمسكتَ يدي بعد
أن نزعْتَ عنها القلم. أردتُ أن أقول شيئاً لكنك قطعنتي وأنت تضع
إصبعيك على فمي تبيح لهما لثمي. وأنا لا أزال أقف على دهشتي
لقدومك، قلتَ بعد أن أضاءت النجوم حولنا، نجومٌ تشكَّلت حروفاً

مضيئة مُضاءة مُعلنةً بداية منتصف الليل:

- "قليلا من الصّمت يا جاهلة...

فأجمل من كلّ هذا الحديث...

حديث يديك على الطاولة"².

" تهمة "

على عجل جلسْتُ بجانبه وخلفنا كانت تجلس على نار امرأة ترتدي القلق بشكل فوضوي.

- " إلى أين؟ "

سألني سائق التاكسي. وقبل أن أخبره وجهتي نطقت من خلفي:

- " رجاء بُنيّ خذني لقسم الدرك أريد أن أبلّغ عن غياب ابني... ". وخنقت العبرات باقي الرجاء.

نظر إليّ أومأْتُ. فَهَمَّ و انطلقنا. كانت من تحت النقاب تشتكي ظلم الزمن، وبشفتين مرتجفتين قالت:

- " أين أنت يا روح أمك؟ "

سألها سائق التاكسي: " منذ متى اختفى؟ "

وكأنها كانت بانتظار السؤال:

- " سافر صبيحة الأمس مع صديقه الذي يمتهن الحلاقة محلّه. في المساء انقطع الاتصال فخمنتُ أن بطارية هاتفه نفذت. اتصلت بصديقه ليقول إنه كان يودُّ أن يسأل عن سبب غيابه عن العمل. "

سكتت تمسح دمع أمُّ أحرقتها الخوف على كبدها وبكى قلبي لحالها. أخرجتُ صورته مدّتها للسائق ثم لي، تتوسم في أحدنا أن يكون ملح شبحة. كنت أرى السائق يحاول تهدئتها قائلاً إن سحر وهران يجعل المرء ينسى حتى نفسه وكانت هي بالدمع تسرد احتمالات مخيفة توجّستها، أفضعها أن يبيعوا أعضائه ثم يرمونه جثة لكلاب البشر. كنت قد بدأت

أقلق مثلها وأدعو الله أن يرد لها ابنها سالما. بينما بدا السائق بلا
ملامح كأن الأمر عادي جدا.
حين نزلتُ قلتُ للسائق:
"- المسكينة... ربي يرجع لها ابنها سالما معافى".
فرد السائق بما قتل به دفعة واحدة تفكيري ومشاعري:
"- تكذب... مجرد هجالة³ طامعة في الحصول على رقم أحد الضباط
وموعد... ليس إلا...".

²مطلقة

"اعتباطية"

ترددت كثيرا قبل أن استشير صديقاتي، فأنا لا أعلم بعد إن كُنَّ سيقبلن بي وأنا حديثة العهد بهن. كنت أجلس كل مساء بالقرب من الجسر الذي كن يرتدنه ذهابا وإيابا في حركة قلقة أشبه ما تكون بامرأة تعاني آلام المخاض. لم أقترب منهن. ماذا سأقول ؟ ربما لست جاهزة بعد لأصارحن بنيتي في مصاحبتهم.

مرّ وقت طويل وأنا أقف بذلك المكان أراهن يَغِين داخل نفق طويل لانهاية له، ولا يعدن. كانت فرحتي تكبر كلما اقتربتُ دون أن ألقى معارضة أو طرد، فُرُحت يوما بعد يوم أحاول أن أحدث أقرب واحدة تمر بجانبني. لم تلتفت لي ولا واحدة غير أنني استطعت أن أنتصت على ما دار بين صديقتين من حديث. كانت الأولى قالت ووجهها يعكس شرارة غضب امتزجت بقلق رافعة حاجب عينها اليمنى:

-“كنت تمنيت أن أكون من ضمن صديقاتي اللواتي اختارتهن، رغم أنها أوشكت على اختياري، غير أن الغيبة التي كانت ورائي زلت قدمها فسقطت أمامها محتلة مكاني ووقع عليها الاختيار رغم أنها أقل مني شأنا وقيمة“.

ردت صديقتها ساخرة في ابتسام:

-“لا عليك، إن لم يتم اختيارك الآن فأكيد ستختارك لاحقا. بالنهاية هي تحتاجنا جميعا، فقط يبقى لكل منا أوان ومكان“.

لم أفهم شيئا مما دار بينهما. نزعت قبعتي أمد أذني ويدي اليسرى تحوطها كمكبر صوت... لم أسمع شيئا... ولم أنتبه إلا ويد إحداهما تقبض على أذني بشدة:

-“من أنت؟ وماذا تفعلين؟”-

ارتبكت. لم أعرف ماذا أقول، رحْتُ أحاول شغلها بحكّ موضع الألم حتى سمعت صاحبها تقول:

-“لعلها منافستنا الجديدة؟”-

وأطلقت ضحكة أشعلتني غيظا ووترتني. كدت أقول: ”عن أي منافسة تتحدثين؟“. ردت الأخرى بعد أن حررت يدي:

-“تظاهر أنها لا تعرف. أكيد هي من الوافدات الجدد. فصدقتنا كما تعلمين مهووسة بالمطالعة كثيرا ومدمنة سهر“.

صمت قليلا ثم أضفت متجاهلة وجودي:

- “تبا... ليلة أمس لم تنم، باتت تردد كما في صلاة اسما غريبا ”دوسوسير.. دوسوسير..“، رجوتها أن تبتعد عن نافذة حروفي وإلا تطلبني وتختارني لأكون معها، أما وتزعجني فقط دون أن تختارني...؟“

وأطلقت تنهيدة ضجر عميقة لتواصل وصدقتها الطريق نحو الجسر. أفقت على دهشتي من كلامهما، أحفظ اسم ”دوسوسير“ ليطلق برأسي سؤال ملح نفّسته على مسمعي قبل رحيلها: ”من أنت؟“.

صحيح. من أنا؟ متى ولدت؟ وما الذي أفعله داخل هذا العالم الضيق الذي تتكاثر رائداته يوماً بعد يوم. اسم دوسوسير كان حرك كيانى كأن شيئاً ما به يربطني. هل أنتمي إليه؟ هل يشبهني؟ هل يعينني أمره؟ وأنا غارقة بالبحث عن هويتي أسأل نفسي دون أن أجد رداً حتى سمعت صراخاً كأنه قادم من بعيد:

-“وجدتها.. نعم.. هي هذه...”

وراحت تكتبني بدفترها بعد أن تدرجت تلقائياً عابرة ذلك الجسر الذي كان يخفي الكثيرات قبلي وما عرفت منتهاه آنذاك. لأصطف أمام سطر من الكلمات التي اختارتها قبل أن يحين دوري، فرأيت تلك التي كانت سبقتني بلحظات خلتها هناك يوماً كاملاً. آلمني مصيرها فقد كانت سعيدة جداً لأنها ستخرج للحياة. كانت مبتورة الحروف وقد وضعت بجانبها محاة علق بها بعض أشلائها من حركات ونقاط. ورأيت صديقتي الجديدة مكبلة بخيوط زرقاء بشكل عشوائي بعدما شطبتها. وأدركت أنني كنت الكلمة الضائعة التي ظلت تفتش عنها والتي حفظتها ليلة أمس لأجل هذا الامتحان. وما فاجأني حقاً أن المفردة التي سمعتها أمس كانت حاضرة تسبقني بكلمة ما كان لي أن آخذ معنى بينهما دون هذا الترتيب. كنت مجرد كلمة “اعتباطية” أنا.. نعم.. كنت “اعتباطية” يسبقني “دوسوسير” وتلحق بي “علامة”.

"إنتصار مفاجئ"

- "شيء سيبقى بيننا".

قالت تغلق ديوان فاروق جويدة وقد دخلت والدتها حاملة صينية الشاي بنكهة النعناع. خجلت منها فراحت تحمل عنها الصينية، تقول في سرها؛ هذا هو العصيان الصامت. كيف أتمدّد على سرير الراحة بينما أمي تخدمني! .

جلست أمها بجوارها تقلّب إبريق الشاي محافظة على طوقسه، كانت تريد أن تقول كلاما عنه يجعلها تقبل الزواج به. لكن خديجة تعرفه وتعرف كل تفاصيل حياته. كيف لا وخالتها لا تفوّت جلسة دون أن تحكي عن ابنها الوحيد. تظاهرت فاطنة بالانشغال عن حديثها الذي حفظته وهي تفتح كتابا دون أن تهتم لمحتواه.

- "ابنتي فكري في مستقبلك، لن أعيش لك كل العمر..أريد الاطمئنان عليك قبل أن أموت".

- "بعد عمر طويل أمي لماذا تنبشين سيرة الموت؟".

- "عليّ رجل يا ابنتي... رجل ولا عيب فيه".

قالت أمها وهي تثبت نظرها في الكأس التي كانت تفرغ فيها الشاي بينما كانت فاطنة تحكي في سرها عن مراد. تمنّت لو استطاعت إخبار أمها بذلك. ستقول لها كيف عرفته؟ أين قابلته؟ وأسئلة كثيرة لا إجابات لديها عنها. أزاحت الحاسوب تاركة دردشتها مفتوحة على موقع التواصل الاجتماعي بانتظار إشارته الخضراء. أمها لا تزال تذكر محاسن

عليّ وفاطنة لا تزال تستحضر دردشة مراد... أخيرا أضاءت إشارته الخضراء إيذانا بدخوله. اعتدلت لكنها خجلت أن تكتب له شيئا بحضور أمها رغم أن أمها لن تفقه شيئا مما سترقن على لوحة المفاتيح. وكثيرا ما تدعو لها ظنا أنها تكتب بحثا أو تطالع شيئا. اكتفت أمها بعد يأس بأن حملت كأسها تقيس جرعة خبيثتها قائلة:
- "الله يعينك على دراستك حبيبتى".

إشعار جديد بوجود منشور على جداره. وضعت نظارتها تستقبل ما نشر. فجأة قفزت كقطة مذعورة لا تعرف ما تقول. مكمّمة فمها بكلتا يديها ووجهها لأمها:
- "أمي...م..را..د تـ.زوّج..؟!".

"أحجية الربيع"

كل شيء أحسه يتكسر أمامي. أسمع صداه... لكنه لا يسمع شيئاً من وجع ذاكرتي... يكفيه اختطاف وردة... وردة واحدة بورقتين وبرعم صغير. وأنا المسافرة دوماً بدونك... الحاملة بطيفك وظلّك... لا زلت سرّاً أبحث عنك.

أشبه كل جماد إلا نفسي، وأتوق إلى كل شيء تركتَ عطرا منك فيه. ومن حافلة أنزل لحافلة بالهموم والأحزان حافلة. كيف لامرأة أن تحب بهذا القدر من الحزن وأن تمتلئ بكل الفراغات التي يتركها رجل.

فتحتُ النافذة، بقايا صور على أرضية الشارع ومطر يتكسر لأنين ذاكرتي، وعمود كهربائي يحتفي نوره بسرد ذكريات قمر... وكنتَ أنت المتفرج الوحيد غير أنك غادرت دون أن تصفق حتى، أو تنتظر نهاية العرض.

على الجهة المقابلة كانت تجلس جدتي بضاف دجلة، تستظل بشجرة كرز تمشط شعرها الأحمر. خلفها حفيدها نزار... كانت تغني وهو يبكي وأنا أرى ولا أفعل شيئاً. وغير بعيد شاب يحترق وحوله المئات يصفقون

احتفالاً بقدوم الربيع... هربت ببصري وأنا أضم قلبي الصغير إليّ.

كان المرمي أمامي رث الثياب... فاقد الوعي. لحيته المضمخة بالتاريخ، وجهه الحاد النظرة صار مبرقعا بالكاد تعرفت عليه، إنه الشخص الذي كان يردد مقولة ابن خلدون في المحافل الدولية "اتفق العرب ألا يتفقوا"... عدتُ مجدداً لجدتي أحاول أن أقبل جبينها. وجدتُ حفيدها مرمياً خلفها بلا حراك.

أرعبتني الصور التي اكتست شعار الربيع، لكن أُنّي لهذه الألوان أن تلد الربيع؟! أطفأت التلفاز ولم تفارقني الصور. مثلهم كان غادرنى هو حاملا بعض ذاكرتهم. حملت حزني بانتظار عودته وأنا أقطع عهدا لنفسي بألا أقرب التلفاز وبأن أظل وفية للصبر والقدر وبربيع حقيقي بكل الألوان فيه إلا اللون الأحمر...

"ذكريات"

لا أزال من ذلك الجيل الذي يخجل وهو بالحافلة أن يُخرج من محفظته قطعة حلوة لأنه لا يملك قطعة أخرى يعطيها لمن يجاوره. لا أزال رغم كبري أجلس قرب جدتي كلما فتحت صندوقها العجيب طمعا بالظفر ببقايا زجاجة عطر تريد الاستغناء عنها. لا أزال أحزن وأدخل بدوامة توحد كلما فقدت صديقة كنت أحبها ولسبب تافه لم أجدها. لا زلت أنزع عني خماري وأقف تحت السماء كلما أمطرت لأغسل شعري ورأسي من كل الآلام كما كانت تقول جدتي، وأضع إناءً كبيراً بفناء المنزل حتى يتجمع أكبر عدد ممكن من قطرات المطر ثم أشربها متممة بأدعية وأمنيات كلها بريئة وبسيطة. أذكر كم مرة ضحكت صديقتي التي شاركتني بغرفة الإقامة الجامعية على خرافاتي كما نعتتها آنذاك، وكم كنت أنهرها وأغضب منها لساعات. ثم نعود كأن شيئاً لم يكن.

الشيء الوحيد الذي تغير في نظرتي للأشياء والعالم هو علاقتي التي أقيمها مع السفر. كنت سابقاً أفرح كثيراً كلما أبلغتنا أمي بقرار والدي أن نسافر لبلاد جدي وأخوالي، وكان والدي يستنفذ صبرنا لأجل الموعد. يغيره بين ليلة وضحاها ونظل وأمي نطل على حقائبنا التي حوت أجمل ثيابنا.

كنت أنام على وقع فرحة إطلائي عبر النافذة، وسعادي لتجاوز سيارة أبي سيارات أخرى، فنصفق أنا وأختي ونشدو، وحدها أمي كانت تغضب وتتنظر إلينا نظرة حادة فنصمت.

كبرت وتعمدت علاقتي مع السفر، مع الحافلات والسيارات. صرت أمسك على قلبي خشية أن يفزع لحادث ما. حادث صار احتمالاه واردا وممكننا في أية لحظة.

صرت أجلس خلف السائق مباشرة فقط لأراقب عداد السرعة. شيء يضيق بصدري كلما ركبت حافلة. أحفظ بدقة أدعية السفر. أحاول جاهدة ألا يقع بصري على تجاوز حافلتنا لسيارة أو شاحنة أمامنا. تذكرت كل هذه التفاصيل بينما أُمي كانت تضع وشاحا أبيضاً على يدي تلف به كفي المخضبة بالحناء ليلة فرحي. وأنا لا أستوعب بعد أني أودعهم جميعاً لبيت رجل لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه سيكون زوجي باقي أيام العمر.

"رحلة حياة"

نأتي إلى هذه الدنيا بأحلام كبيرة، نسير نحوها بخطى تحمل كل الفرح. قد نتعث، نسقط، يعترض طريقنا الوهن، لكن نعود من جديد بعزيمة أكبر، وأحلام أجمل. نتخلى في كل مرة عن شيء جميل فينا، نهدم قاعدة أو نُسقط جدارا كان في البدء يحمينا. قد نغرد خارج السرب فقط لأننا رأيناه حلا أقرب لوصولنا الهدف. نتجاهل مبدءا أو نغيّر آخر. تنكسر فينا أشياء جميلة، ترميمها يستغرق وقتا، وقد يستغرق عمرا، لذلك... نتنازل عنها ومشي حافيين على ما تبقى من انكسارها رغم أنه يدمينا. تتضاءل فينا مشاعر صادقة بفعل الخيبات، فنصر على الماضي. تنكسر أشياء وأشياء وتتغير. لكن المحزن في كل هذا أن تتغير... إلى الأسوأ... طيبة قلوبنا... لأنها إن قست فلن يصبح لحلمها بعد ذلك أي معنى، حتى وإن تحقق الحلم.

هذا ما كانت منال مؤمنة به قبل أن تراه ذات صدفة بالحافلة، لتغير حروفها، تغير مسارها، ويكون هو، وحده قدرها. تقتلها منشوراتها التي تتنفس حزنها، فترحل معها بعيدا جدا، حيث لا أحد سيقول لها: "كفي عن الحلم... ليس لك".

نطق أحد المسافرين: "وصلنا".

ها قد انتهت مسافة المئة كيلومتر. أشجار المدينة تسابق وجع احتمال فراقهما في أي لحظة تشيع جهما، التفتت كطفل يتيم تعانق وداعه.

كان يعبث بهاتفه، لم تكن تبحث عن شيء محدد. أخفت عينيها عنه كي لا تراه يودعها. وهربت مرة أخرى لقدرها. قدرها الذي ما كان سوى طريق طويلة، قطعها جبل عنتر وهو يطل على المدينة في شموخ. نظرت إليه تنتظر منه موعداً، أو وعداً، هو نفسه، صديق الصدفة التي جمعتهم ذات تعليق بمنشور أحد الأصدقاء، منذ ذلك اليوم بدأت حكايتهما على مرأى ذلك الفضاء الأزرق. كان منشغلاً عنها بجمع محفظته السوداء قبل أن ينزل، تاركاً حروفها ضائعة في ذلك الفضاء الذي ملأه نزول الركاب بكسل، بعد يوم حافل بالأحداث.

لا تعرف كم بقيت من الوقت تراقبه وهو يذهب، لم يلتفت، لم ترتبك خطواته. كان القابض بأدب ينبهها:
- "أختي، أحتاجين شيئاً أو تنتظرين أحداً؟".

أومأت برأسها نافية وبهدوء نزلت. كان لابد لها أن تعرف نهاية هذه الطريق. رجل متزوج وله أسرة أخرى حتى وإن تشكى من عدم راحته بها. ما كانت لتعني له أكثر من رحلة... رحلة حرف... رحلة بحث عن الذات التي نفقدها أحياناً بسبب تهور فنحاول استرجاعها بعد فوات الأوان. ولا يغفر الحب تلك الخطيئة مهما كان بريئاً. حب للحروف التي تجعلنا لا نفرق بين رجل من ورق أحببناه داخل رواياتنا التي نسجناها وحب يمشي كما البقية على الأرض.

حيّت حارس المحطة وهي تدخل بوابتها كالعادة، كان خلفها قدر آخر ينتظرها. كان الواقع بكل قساوته ومرارته ينتظر عودتها إليه. بالنهاية هي حياتنا كلها أقدار...

"رحيمة"

- "رحيمة..الغذاء جاهز...لا تتأخري".

طوت بعناية ملابس صغيرة جدا وهي تصفها بالخزانة، حاملة بطفلة جميلة تشبه والدها. دخلت أختها الصغرى تناديها للعداء. لم تغير من جلستها، قالت مبتسمة دون أن يحيد نظرها عن فستان وردي صغير كان مبسوطا على ساقها اليسرى:

- "لا تنتظروني... لست جائعة".

وراحت تدندن بابتسامة بريئة كأنها ترى طفلها يبادلها الابتسام. عادت تستند على وسادة السرير الذي غطته فوضى ملابس رضيع انتقت ألوانه للجنسين، هي لا تعلم بعد إن كانت ستضعه ذكرا أم أنثى. رفعت سروالا أزرقا صغيرا جدا وضعته على بطنها كأنها تريد أن تقيس ساقى الرضيع داخله. هالها تذكّر حقيقتها، دمع قلبها وهي تسترجع تفاصيل العملية؛ دخولها غرفة العمليات مشيا على الآلام بوجه شاحب وهي تعلم أنها عندما تستفيق ستجد مصلا معلقا أعلى رأسها ودوارا وألما رهيبا.

ألمتها رؤية فتاة تبدو كأنها في الرابعة عشر من عمرها تتبع ممرضة كانت تفتح مكتبا، أشارت إليها فلحقت بها. كانت تستطيع تخيل ارتجاف الملف الطبي بين أناملها.

على الطرف الآخر بقاعة الانتظار كانت تجلس حياة، بقلق تعبث بشاشة هاتفها دون أن تعي حقا. قلبها ما كان معلقا بغير أختها رحيمة التي تركت لها آخر صورة وهي تودعها حاملة حقيبتها البيضاء التي

تقاطع خطوطها الرمادية. رمقتها بابتسامة شاحبة وهي تلوح مودعة، وابتسامة مرتجفة ردت حياة وهي تقف من مقعدها مواسية. كانت تتبعها بعينها إلى أن غابت خلف باب خشبي بلون رمادي كئيب. وغرقت بعينها الصور.

الساعة تشير إلى الثلاثين دقيقة بعد منتصف النهار حين علمت حياة من المراقبة الجالسة على الباب أن الطبيب باشر بالعملية، إنتابها دوار وصداع رهيب، حاولت الوقوف لكن قدميها تراجعت. استندت على جدار صغير يغطي مساحة خضراء بباحة المشفى وهي تتفقد في قلق شديد ساعة يدها. كل تلك التفاصيل ذبحت أختها كما ذبحتها هي بعد أن استفاقت لا تعي من الدنيا شيئاً سوى أنها بعثت من جديد. لوهلة نسيت رحمة أنها الآن لن تنجب مجدداً لا ذكراً ولا أنثى وأنها صارت رحمة بلا رحم...

"حكايتي والحافلة"

منذ سنوات أتنقل عبر الحافلة، لا أهتم كثيرا للركاب ولا إلى السائق، دوما تأخذ النافذة المساحة الأكبر من اهتماماتي فأختار بعناية مقعدا مجاورا لها. أغوص بأعماق السحب التي تركز بسرعة الرياح شتاء، وبزرقة السماء الصافية صيفا، دوما هناك رغبة جميلة تجتاحني كلما تخيلتني أركض بتلك المساحات التي تطويها الحافلة على عجل، فلا تمنحني فرصة اقتناص صور لي بها.

اليوم... وبعد عشر سنوات سفر، أحسني كبرت كثيرا... تعبت كثيرا... ترهلت صور النوافذ بمخيلتي، فلا أنا عدت أنتبه لوجود جبال تشمخ بطولها، ولا هممتني عاصير محلقة أسرابا في لوحة بديعة. ولا هو مكاني بالقرب من النافذة صار يغريني.

تموت فينا الرغبات حين نفقد السبب الذي كنا نناضل من أجله، وتقل حاجتنا للمرح. قليل من الابتسامة المتعبدة تكفي ليوم عمل مضمّن. ما عدت أختار بعناية مساحيق التجميل أو أقف لساعات طوال أمام المرآة أزين ربطة خماري البهي الألوان. الآن صار السواد يكتسحه فأرميه بعشوائية وألقي نظرة سريعة بالمرآة قبل خروجي. غيرتُ جلّ عاداتي إلا تلك النظرة السريعة بالمرآة أحس من خلالها أنني لا أزال أحتفظ ببعض من طقوس الأنثى. كنت أسافر سابقا على أمل لقاء جميل يجمعني بأقدار العمر التي تستحق. كنت وأنا أجلس بالحافلة أتفقّد وجوه الركاب من حولي... أبتسم لهم... أقاسمهم ما أحضرت معي من زاد مهما

كان قليلا... أثرثر، أحكي لهم عني وأسمع قصصهم، أواسيهم بأحزانها وأشاركهم فرحتها. كان قلبي يخفق كالطائر كلما اقتربت من الوصول، لأحضن عائلتي، أنزع عني ثوب الإرهاق وألبس على مقاس فرحهم، فتغدو الحياة بعيني أجمل وأحلى. وإذ أفرغت شحنات شوقي أحملني لمنزل أحد الأقارب، أجلس على فنجان قهوة وبسكويت وأحاديث لا تنتهي إلا بأذان المغرب.

ياااه... كم تغير الزمن... غاب الأصدقاء في زحام العمر... غيرتهم الظروف... وعزتهم المواقف... حتى أولئك الذين راھنت لأجلهم وتوقعت الجفاء من الجميع إلا منهم... خذلوني... كنت أبصم بنبضات قلبي أنهم لن يعوضوا أبدا، وأن الزمن سيتغير ولا يتغيرون، لكن، بقي الزمن وفيا... وما وفوا... بقيت جلسات القهوة وفية على طاولتنا المسائية، لكنها غدت باهتة، حتى ذلك الإصيص الذي كان يذبل شتاء ويزهر ربيعا، ظل شاهدا، ولم يظل الأقربون كذلك. شوھتهم المصالح، أغوتهم الدنيا التي ضحكت... لكن... بدوننا. صاروا قادرين على الابتسامة والضحك عاليا حتى دون أن أشاركهم ذلك كما كنا نفعل.

صاروا يتبادلون التهاني بعيدا عن عناقنا... آه... ما عادت تهمني الآن نوافذ الحافلات، فمثلهم صارت تنغلق على هواء ملوث. ما عدت أنظر لساعة يدي وقلبي يسارع الكيلومترات ليصل، تشابهت كل الأشياء، كل الأوقات، كل الأماكن، كل الانكسارات بداخلنا صارت كأنها شريط مسجل يعاد برتابة كل يوم. ما عاد يهمني أمر الركاب ولا حزنهم أو سعادتهم تثير مشاعري... بالأحرى... ما عادت لمشاعري مشاعر... أحسها صارت

ركاما من الذكريات فقط... صرْتُ كثيرا ما أغطاظ لرؤية أشخاص يضحكون
فيلفتون انتباه المسافرين. وفي سري أتساءل : أيوجد ما يستحق كل هذا
الضحك ؟.

! غريبة عني... ولا أشبهني... ولا أعينني في شيء سوى أن الانكسارت المتتالية
قتلت براءة إحساسي وحولتني مجرد امرأة تركض بهوامش العمر.

تذكار تلك المحبة

تشتعل كفتيلة شمع داخل مزار، لا يمكن أن يكون إلا بزاوية كالتي زارتها وإياه، فتتحول بين يديه محرقة بخور مزينة بألوان تبركنت⁴.
بعيدا عنه قليلا، تراه يرتسم، هو، عرجونا. فتنبهر، هي، بما صنع منها الشوق والحنين.
تغار منها، تلك الخرافية، كما قرأت عنها في حكايته عنها. ها هي تراها. تبعثها مقتفية أثرها. خطت بنعلها سبيلاً علها تقودها إليها.
رقبها هو متبعا خطوها. محا برياحه العطرة أثرها إلى بتوليه. بكى الرمل الذي ذات سفر دثرهما. كان شمها، وهي توشم بناها على صدره كلمات جسدها؛ جسدها الذي في البدء كان لها، ها هو يفلت منها إليه.
همست له: "استعرتُ لك من النجم نوراً ومن الشمس مرقما. استدرُ لأرسم وجهك، كما لم تعرفه بتولك." فانهمرت التذكارَات بينهما عاصفة ابتلعها صمت توات.
سمعتُ صدى لصوته: "هنالك، في موطنك، شمس تعصر لك من عينيها الباكرتين ندى الحنين".

⁴تبركنت: قصر من قصور أدرار العتيقة

في الجنان، رأَتْ النخلةَ ضحكتُ له ملء سعتها. لما جاوزها فاقتربتُ هي منها سمعتُ اليمامة تقول على أحد أخواصها: " هو، القادم بملح البحر. هي الحاملة، خلفه، عبق الشَّيخ". ثم طارتُ.

هناك، في تمنطيط، أبصرتُ ظلًّا لروحها عبَرَ توات من أقصاها إلى أقصاها. عطشى كانتُ. جفَّف ماء ساقية الفقارة فيها عرقها، راود وجعها، أشعل ولَّهها. وفي متاهة بستانها ضاعتُ بحثاً عنه. كان بينها وبين النخلة؛ هي النخلة الأثنى؟ إنها آتية من أرض لا تعرف الفرق بين ذكر النخل وبين أنثاه. ثمرة تهود تلك من تلك النخلة؟ كانت تدسُّ لهما سكرها. بفمها تحول بين شفتيه عسلاً من نحل الجبل. تألمتُ: " يا روحي، ما أقسى التذكار! وما ألد الاشتاء، يا وجعي!".

أينما استدارت فثمَّة كانت. هناك، تتجلَّى من بين نخيل البستان. تلتحف الصمت. تتلصص عليها، باسمه.

في البدء، كانت تتفهاها بحثاً عنه متتبَّعة ظله يقوده إليها. الآن، هي ذي جميلته. هذه التي تأتي وجودها على أرضها. تغار منها، هي التي تحرق غيرتها. ها هي تناءت، باسمه. إنها تبصرها سائحة في عينيه. عجيب لها أن تمنحها جلوسها قربه، هنا حيث يتربع. (يُكفَّل، كما يقول). تصبر عليها، لأنها موغلة في الصمت؛ صمت يتولد في داخلها بألف سؤال. إنه ينظر إليها. يرسل إليها هذه الابتسامة التي تشع نورا. بتوله هو! ما ذا تفعل هي؟، ترجَّتْ: " لها منك كل شيء فامنحني من روحك نصيباً".

ها هي ملهمته تعود. تنهض هي. تقابله هناك تحت النخلة الرانية إليه. تغبط من يحيطون به باسماً لهم مسترسلا في سحر حكايته عن المحبة. لَوْحَتْ بحنينها إليه. أبصرتها جميئته. حذرتُها بمكر عينيها الجميلتين: "لا تقربيه حتى لا تحرقك ناري".

موجعة هي. قبل أعوام كانت حاصرتُ مملكة كلماته فلم يعد يقول إلا بها. يستسلم لها، لهم. وتلجأ هي المتعبة إلى الصمت. تحديق. تقلقلها غيرتها ووساوسها: "هل لمست بساطته؟ هل أصابتك لباقة رجولته؟" أغمضت عينيها. أمحت صورهم في ذهنها، أولئك المحيطين به. وحدها صورته. بتوله. وهي.

قبل ساعة، كانت شمس نهاية هذا الخريف تراقصت لأولوا على خدّه عند سفح القصر المهجور. في عمقه، كانت أهازيجهم تزهو بأذنها. كانت تسمعهم. كانوا يحفرون فقارة ذاك القصر. وحده كان يفهم لغتهم. ووحدها كانت تقف على رمل دهشتها. فرحتُ. خلعتُ نعلها. ركضتُ خلفه كي لا تثير انتباهه. خالته في طريقه إليها. استنشقتُ عطر بتوله. كانت هناك. هنا. بينهما، يتسم بحياء له، باستغراب لها. أدركتُ، هي الأنثى، أنها تقتفي أثره لسبب تعرفه.

أخيرا، اقتربت منها. تأملتها. ابتسمتُ. هو، كان لا يرى ولكنه يحس، هو كان يتسم. هي لم تقل شيئا. بخفة، حالت بينها وبينه. ذارعت ابتسامته. كانت تحرسه.

هي نادت: "بتول، يا سيدة. ليتني فقط استطعت أن ألمسك لأعرف من أي جنس أنت. قيل: "امرأة ينقص أخلاطها التراب" قلتُ: " ينقص

أخلاطي أنا السراب". امنحيني إشارة عبور إليه، إلى بعض منه. روعي
يحترق".

بكتُ ثم أكملت: "أنت يا درويشها، خُطِّ لها مخطوطة تلهيها عنا حيناً،
أشغلها برهة عنه. أعد لها ما كنت تحكيه، ما كانت تحب سماعه
منك. وإن تعبتِ دع حسونة تغني لها وجعي، على جلسة شاي، لأسرقه
منها، لأتدثر به ليلة: "أنا حتما لا أشبهها. لكن، ذاك هو الوفاء".

" ربح فيها صر "

فتحتُ النافذة، ريحُ ذكرياتٍ صرّ لفتحِ ذاكرتي، قرّبتني مني وقبل أن أغلق النافذة ذاتها كانت تلك الريح قد أخذت - في غفلة قلبي - بعضا مني.



"مراجعة عواطف"

ولأن الحب جاء بلا موعد، غادر سريعا بعدما لم يجد مدينة مشاعرها مقعدا يتكئ عليه، كان أقي عقب مراجعة عواطف.



"هلوسة"

فتح عينيه بالسجن، لا يعرف ما حدث بعد ليلة ماطرة بالهلوسة، حين وقف أمام المشنقة كان الشاهد الوحيد لإدانتته أصابع والده الملتصقة بوجهه وهو يحاول الخلاص من سكينه الحادة.



" زاوية حادة "

كلما اقترب كانت المسافة بزواوية الجدار تزداد ضيقا، والصور بشاعة، اقترب لقوة من الخلف رغماً تدفعه، تقلصت الزاوية، ألم يمزق ما تبقى من براءته، ثم اختناق تام بين ضلعي تلك الزاوية الحادة بعثره أجزاءً بكيس قمامة.



" وجع "

ريحٌ تُبعثر أمام الملاً ذكرياتها؛ يلتقط أحد اللصوص وثيقة طلاقها، يبرمان صفقة لقاء، تموت بسيف الندم و بقلب فارغ يعيش.



" خيبة "

احتمت برداء أكاذيبه؛ قتلها صقيع الخيبات.



" صدق "

فتح مذكرة قلبها؛ قرأ وجعها، ودون أن ينتظر ابتسامة قبول قبل جرحها
فنامت على فرح.



" كاذب "

رفع إصبع ضلالتة للشهادة؛ بترته دماء الأبرياء.



" عزيزة "

تبعثرت خيوط أمنياتها؛ ربطتها بوريد الدعاء.



عناوين القصص:

- 09 -مُسافِرة
- 12 -هُويَّةٌ مُطلَّقة
- 17 -مرآة جدتي
- 19 -وعادتْ بِحُفِّي حَنِين
- 26 - تهمة
- 28 -اعتباطية
- 31 -إشعار مفاجئ
- 33 -أحجية الربيع
- 35 -ذكريات
- 37 -رحلة الحياة
- 39 -رحيمة
- 41 -حكاييتي والحافلة
- 44 -تذكار تلك المحبة
- 48 -رِيحٌ فيها صِر
- 48 -مجاعة عواطف
- 48 -هلوسة
- 49 -زاوية حادة
- 49 -وجع
- 49 -خيبة
- 50 -صدق
- 50 -كاذب
- 50 -عزيمة

